

البعد المجتمعي للنظريات السوسيولوجية

د. إبراهيم بويحيوي قسم علم الاجتماع والديموغرافيا

جامعة سعد دحلب البليدة كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

لكل مجتمع سوسيولوجية، و لكل سوسيولوجية مقاربتها النظرية. للمجتمع خصائصه التي تميزه عن غيره من المجتمعات سواء من الناحية السياسية، الاقتصادية، الثقافية، القيمة، المعيارية و الدينية أو من الناحية المعرفية كطبيعة العلوم و محتواها و المواضيع التي تدرسها.

بما أن لكل سوسيولوجية مقاربتها النظرية فيمكننا أن نتساءل عن مدي موافقة النظريات السوسيولوجية كالوظيفية و التفاعلية الرمزية لنظم اجتماعية مختلفة عن تلك التي نشأت فيها.

فإذا تطرقنا لهذه النظريات فنجد أن لكل واحدة منها تاريخها الخاص بها و المرتبط بالضرورة المعرفية لها. فسواء على مستوى الظروف التاريخية أو على مستوى الدعائم الإستيمولوجية فكل نظرية تعبر عن سوسيولوجية خاصة.

البعد الإيديولوجي للوظيفية

إن مفهوم الوظيفة يعبر عن خاصية مرتبطة بعلم الحياة ؛ فقد نُقل من البيولوجيا إلى الفكر الاجتماعي من طرف كل من أوغست كومت و إميل دوركايم و هربرت سبنسر. فعن طريق المماثلة بين ظواهر طبيعية و ظواهر اجتماعية تم استنتاج الوظائف التي تكون لكل عضو في «الهيئة» الاجتماعية كما هو الحال بالنسبة للظواهر البيولوجية. فوظيفة التجارة مثلا تشبه وظيفة الدورة الدموية في تغذية الجسد.

و لكن الوظيفية لم تأخذ بعدها النظري المتميز إلا مع مروجها الأمريكي طالكوت بارسونز (1902-1979) الذي جعل من البنائية الوظيفية نظرية جاءت لتواجه النظرية الماركسية.

جاءت الوظيفية لتنظر للمجتمع الأمريكي بصفته مجتمعا يعرف خطرا يهدده من امتداد التيار الشيوعي خاصة و أن الطبقة في أمريكا و التمايز الاجتماعي واضح و أن الخطاب الماركسي يجد واقعا يتناسب و تحليلاته النظرية و أسباب الصراع الطبقي.

من هنا تميزت الوظيفة بمفاهيم كلها ترمي إلى إبعاد شبح الصراع الاجتماعي. كما أن الوظيفة تعبر عن طبيعة الطرح السوسيولوجي للمجتمع الأمريكي.

فالمفاهيم الأساسية مثل البنية و النسق و القيم تجعل الوظيفة تحاول أن تبني نسقا نظريا يسمح لها بأن تتطرق لدراسة المجتمع على أساس إستيمولوجي متميز.

فالبنية، من حيث هي نسق، تعوض مفهوم الطبقة من جهة كما أنها تفيد أن النسق الاجتماعي ستاتيكي و ثابت من جهة ثانية بالإضافة إلى اعتبار البعد السيكلوجي الأمر الذي يجعل من المقاربة السوسيولوجية قائمة على القيم التي تمثل بعدا مثاليا خاصا.

فسق المفاهيم المتمثل في المتطلبات الوظيفية مثل التكيف و الاندماج و تحقيق الهدف و تسيير التوتر يمثل القاعدة الصلبة التي قامت عليها الوظيفة. فهذه المفاهيم كلها تحدد طبيعة الفعل الاجتماعي الذي يمثل النسق القاعدي الذي يسمح بالمحافظة على النظام و تحقيق التوازن ؛ فعلاقة النسق بالتوازن تمر من خلال عملية التكيف و الاندماج (أو التكامل l'intégration). و هذين العمليتين أساسيتين في بناء المجتمع.

إن المجتمع الأمريكي الذي ظهرت فيه هذه النظرية كان في الثلاثينيات و الأربعينيات من القرن العشرين يعاني من أزمة حادة تولدت عن أزمة 1929 مما أدى إلى تدهور الحياة الاجتماعية الأمر الذي يعطي مصداقية للنظرية الصراعية. فقد اهتمت الوظيفة بالبنيات و الإنسان الاجتماعي و بالنظم التنشئية كالأسرة و المدرسة باعتبارهما الوسط الأول الذي يوجد فيه الفاعل الاجتماعي ؛ فهذه الأنساق الفرعية تقوم على أساس المتطلبات الوظيفية بالإضافة إلى الاقتصاد الذي يسمح بتأمين الوسائل المادية و الضرورية لحياة أعضاء النسق الاجتماعي.

إن مفهوم إدارة التوتر جاء ليعوض مفهوم الصراع ، ذلك لأن النقد الذي وجهه للنظرية البنائية الوظيفية، خاصة تلك الفكرة التي مؤداها أن الوظيفة تعتمد على الثبات الاجتماعي بينما الواقع يبين أن المجتمع متحرك، يعتبر أن الوظيفة تعتمد على تحيز إيديولوجي⁽¹⁾.

في حين يمثل مفهوم التكيف تعويضا لمفهوم التغير، فالتكيف كمفهوم أساسي في النظرية البنائية الوظيفية يسمح للمجتمع بأن يجد توازنه من خلال عملية «ديناميكية» محدودة و لكنها تسمح بتقويم الفعل الاجتماعي.

إن النسق الاجتماعي نسق ثابت و لكنه «يتغير» من الداخل سواء عن طريق الفعل (l'action) أو عن طريق عملية التكيف التي تسمح بالمحافظة على النظام.

1 نفس المرجع، ص 76.

فإن التكيف يؤدي إلى التوازن كما سبق و أن ذكرنا و التوازن يتوقف على أساس التنشئة و الضبط الاجتماعي.

إن التنشئة عملية أساسية في المحافظة على النمط، فالمجتمع يعتمد على الموروث الاجتماعي الذي يسمح بتوريث النسق القيمي و نسق الفعل الاجتماعي بالإضافة إلى توريث التصور أي توريث دوافع التصور و غاياته، القيم التي يحملها و المعايير التي توطره.

أما الضبط الاجتماعي فهو عملية نسقية غايتها كذلك المحافظة على النظام من خلال التكامل، أو الاندماج، بين نسق القيم الفردية و نسق القيم الجمعية التي لا تتناقض في منظور البنائية الوظيفية.

فغاية طالكوت بارسونز هي حماية المجتمع من التغيير الجذري و الفوري الذي لا يخضع لقانون الانسجام الاجتماعي و الإجماع الأخلاقي.

يعتبر أنتني غدنز (Anthony Giddens) من ناحية أخرى أن الوظيفية تقلل من الفعل الخلاق كما يعتبر أن الوظيفية نظرية ميكروسوسيولوجية بحيث يجري البحث على الأفراد أو الجماعات المصغرة.

لكن روبرت كنج مرتن (Robert.K.Merton) و خاصة في افتراضه الصفتين الاثنتين للوظيفة (الظاهرة و الكامنة) فقد سمح بتعديل الموقف الذي يعتبر الوظيفة خالصة ليست لها أبعادها التي لا يتحكم فيها الفاعل الاجتماعي.

إن الوظيفة تكون في آن واحد «ظاهرة» و «كامنة» فالكمون هو الذي يحقق الغايات التي لا يتحكم فيها الفاعل الاجتماعي و التي تكون خاضعة لديناميكية الصيرورة التاريخية أي تتجاوز الموقف الفردي.

فيما يتعلق بالمحافظة على النظام يعتبر بارسونز أنه يجب أن يملك هذا النظام أفرادا مدفوعين تلقائيا و بصفة واضحة لاتخاذ سلوكات تتوافق و متطلبات النظام من جهة و قادرين على الابتعاد عن الأنماط الثقافية التي لا تمكن من المحافظة عن النظام أو التي تمثل مجموعة أفراد ليس لهم أتباع من جهة ثانية. و في هذا السياق يتكلم بارسونز عن «نسق اجتماعي معياري» بحيث لا يستمر النسق إلا إذا توفرت الشروط المتمثلة في متطلبات النظام.

عموما فقد وجهت لهذه النظرية انتقادات سمحت لها بأن «تتكيف» مع متطلبات الفكر المعاصر الذي لا يهمل فكرة الصراع و خاصة فكرة التغيير و الذي عوض بالأنماط

غير الوظيفية و التي نشير لها بعدم تكافؤ الفرص و الذي يؤدي إلى البحث عن وسائل «غير شرعية» لتحقيق هدف النجاح. و كما يتبين من هذا المثال الأخير فإن المجتمع الأمريكي هو الذي في إيديولوجيته يدفع أفراداه إلى التنافس من أجل تحقيق الذات بوسائل تبرز خاصة الصفات الفردية المتميزة للأحاد.

البعد المجتمعي للتفاعلية الرمزية

جورج هربرت ميد (1863-1931) هو الذي وضع الدعائم الابستمولوجية للتفاعلية الرمزية من خلال بناء نظرية تقوم على ستة مقولات:

الفرد كائن عقلائي ؛

الفرد نتاج العلاقات الاجتماعية ؛

الحقيقة الواقعية هي الفرد ؛

المجتمع ديناميكي و تطوري ؛

يتعلم الفرد الاتجاهات و المشاعر العاطفية ؛

حصيلة التنشئة الاجتماعية هي تكوين الذات.

هذه المقولات تبين هي كذلك، كما كان الحال بالنسبة للبنائية الوظيفية، أن للمرجعية السوسيولوجية بصمتها في النسق المعرفي للتفاعلية الرمزية ؛ و أول هذه البصمات البعد السيكلوجي أو الاعتماد على ما يسمى بالفردانية (l'individualisme). فالمجتمع الأمريكي يعتمد على الفرد من حيث هو فرد له طموحاته و ميوله و رغباته، و من ثم جاءت المقولة الأولى لتبرز دور العقلانية (la rationalité) بالمفهوم الفيبيري و التي تتميز بالفعل المبني على حاجات الفرد، تلك الحاجات التي ترسم له مكانه في المجتمع. فالفرد عقلائي بما يبذله من جهد لتحقيق الذات. فمفهوم الذات أساسي في النسق المعرفي للنظرية التفاعلية كما سنراه أسفله..

و المسألة الثانية التي تلتقي فيها التفاعلية الرمزية بالوظيفية تتمثل في دراسة «وحدة الفعل الصغرى» (micro action unit). تهتم التفاعلية الرمزية بالفرد من حيث يمثل علماً مصغراً (microcosme). محور الحياة الاجتماعية هي الفرد فلا معنى للمجتمع دون اعتبار تحقيقات الأفراد من حيث لهم وجود مستقل. فالفرد هو نتاج التفاعل الاجتماعي بهذا المعنى، كما تحدده المقولة الثالثة، أن الحقيقة الواقعية هي الفرد.

فالغاية هي تحقيق الذات الفردية من خلال النجاح (la réussite individuelle) الذي يتمثل في منافسة الآخر. فالاعتبار ليس للطبقة و لا للجميع وإنما للفرد.

أما فيما يتعلق بتحقيق الذات فالذات الفردية تتعامل مع نفسها ثم مع محيطها و الذوات الأخرى.. فتتكون ذات الفرد من خلال المراحل التي تتمثل في مرحلة ما قبل اللعب ثم مرحلة اللعب ثم مرحلة الآخر المعمم.

إن العنصر المعرفي الذي تبنى على أساسه الذات هو المعنى. فالمعنى يتطلب حامل أي قاعدة (un support) و الذي يتمثل في الرمز. فالعملية التفاعلية بين الأنا الفاعل و الآخر يمر من خلال تفكيك الرموز الذي تسمح به تكوين الشخصية من خلال عاملين هما التنشئة الاجتماعية و استبطان الآخر من خلال التصور الذي يوحيه للأنا المفعول فيتم التوافق بين اتجاهات المجتمع و رغبات الأفراد (L'intériorisation de l'autre ou du vis à vis). في سياق هذا المعنى يرى محمود عودة أن التفاعلية نظرية في التنشئة الاجتماعية.

فاستبطان الآخر يؤدي إلى تصنيف الناس من خلال مقاييس اسمية مثل الجنس والدين أو مقاييس تأهيلية مثل الدخل و الثروة و التعليم و القوة حسب بتر بلاو. فالتبادل الاجتماعي يتم من خلال الرموز التي يحملها كل مؤشر من مؤشرات المقاييس التي ذكرنا، فالمجتمع هو مجتمع الأفراد الذين يفهمون معاني الرموز التي يصطلحون على فهمها من خلال التطبيع الاجتماعي. فالآخر يأخذ مكانه ضمن التصور العام للفرد، فمكانته الاجتماعية تتحدد من خلال وضعه في الخانة المناسبة لدوره و تأهيله و بالتالي تصنيفه فهو كما يريده هو من خلال ما يرى أنه واقعي.

فقد قامت التفاعلية على العقل (la raison) و التفاعل الاجتماعي (l'interaction sociale) و المعنى الرمزي (la signification symbolique). تتكون الأنا من الذات التي تعمل و تفكر أي من العقل (la raison)، أما فيما يتعلق بالتفاعل الاجتماعي فإن اللغة دورا أساسيا في تشكيل الذات من ثمة نجد في المجتمع الأمريكي أهمية بالغة لأبسط الكلمات و التي، كمعنى رمزي تحدد الموقف مثل التوافق من خلال كلمات القبول أو الرفض التي تصاحبها سلوكيات و حركات جسدية تعبر عن موقف صريح. فحسب هربرت بلومر (Herbert Blumer) يوجد استعداد لدى الأفراد و الجماعات لسلوك سلوكيات كرد فعل لتأويل الرموز و فهم المعاني. إن الفرق بين المدرسة البهaviorية (behavioriste) و التفاعلية الرمزية يتمثل في زيادة مفهوم المعنى لمفهومي المنبه و الاستجابة. فالتفاعل يؤدي إلى تشكيل المجتمع، إن في هذا الإطار يمثل المجتمع

نتاج التفاعل الذي يتولد عن تفسير معاني الرموز و الإشارات الاجتماعية. و من هنا نرى تشكيل المقولة الرابعة التي تتمثل في اعتبار المجتمع نسقا ديناميكيا.

بإعطاء الأولوية للفرد على الجماعة تكون التفاعلية الرمزية تعبر عن ثقافة مجتمع و هذا ما توضحه أكثر نظرية إرفنج جوفمان (1922-1982) الذي يجعل من تشابه الأفراد في حقيقتهم العميقة رغم اختلاف الثقافة و الانتماء الطبقي أساس تحليل طبيعة المجتمع. فالفرد هو الذي يحدد تاريخه الخاص أو *sa propre biographie*.

فلعب الأدوار كما اقترحه جوفمان يتحقق من أجل التوافق مع تصور الآخر للأنا. فيعيش الفرد في تصور الآخر و الغاية هي تحقيق الأنا الفاعل وفق ما يقتضيه المجتمع الأمريكي.

استنتاج

إن الإطار الاجتماعي للمعرفة يسمح بربط النظرية بالواقع الاجتماعي هذا المعنى أنه لا بد من La sociologie de la connaissance doit rechercher les genres de connaissance les plus impliquées dans la réalité sociale et dans l'engrenage de ses structures.

إن هذه الجملة ترجع نوع النظريات التي نعرفها و التي تعرضنا إليها إلى طبيعتها الأولى و المتمثلة في كون النظريات تعبر عن حقيقة مجتمع و أنه لا بد من استغلالها، عند استعمالها بحذر و بدقة بالغة بعد تكييفها مع الواقع «الجديد» الذي تطبق فيه.

إن سوسيولوجية المجتمع الجزائري سوسيولوجية متميزة سواء من حيث تاريخ تشكيل المجتمع الجزائري الذي يختلف اختلافا جوهريا عن المجتمع الأمريكي أو من حيث الاهتمامات و المصالح الاجتماعية و بالتالي بطبيعة المسائل العلمية المطروحة على مستوى البحث الاجتماعي. فإذا كانت التكنولوجيا واحدة فاستغلالها يختلف من مجتمع إلى آخر و الأمر أخطر في مجال الإنسان بحيث أن متطلبات الفرد الجزائري في الوقت الراهن يتمثل في إبداع نمط يتوافق مع طبيعة سوسيولوجية الطموح التاريخي للفرد الجزائري الذي يبحث عن تحقيق الذات من خلال ربط هذه الذات بتاريخها الحضاري الضارب في أعماق التاريخ الإنساني و بانتسابه لحضارة تختلف في أهدافها و طموحاتها عن الحضارة الغربية.

المراجع

- عودة (محمود)، أسس علم الاجتماع، شركة ذات السلاسل للنشر و التوزيع، الكويت، 1987.
- غدنز (أنثني)، علم الاجتماع، ترجمة الدكتور فايز الصباغ، المنظمة العربية للترجمة و مؤسسة ترجمان، بيروت 2005.
- محمد عبد الرحمن (عبد الله)، النظرية في علم الاجتماع: النظرية السوسيولوجية المعاصرة، دار المعرفة الجامعية، 2006.
- مصباح (عامر)، علم الاجتماع: الرواد والنظريات، دار الأمة، الجزائر 2005.
- Gurvitch (George), les cadres sociaux de la connaissance, Ed PUF, Paris 1966.
- Piaget (Jean), le structuralisme, Ed PUF, Paris 1979.
- Dictionnaire :
- Boudon (R) et Bourricaud (F), dictionnaire critique de la sociologie, PUF, Paris 1982.

